نقد الشعر ـ فى البادية (*)

قدم عمر بن أبى ربيعة المدينة فاقام بها حينا وأطال ، ففى ذلك يقول :

يا خليلىَّ قد مَلِلتُ نوائى بالمصلَّى وقد شَنِئت البقيعا
بَلِّغانى ديارَ هندٍ وسُعدَى وارْجعانى فقد هَوِيت الرجوعا

ثم أراد الانصراف فقال له الاحوص : أشيّعك . وخرج معه حتى نزلا وَدَّان وبها منزل نُصيب ، فعارضهما وصار معهما ، حتى اذا نزلوا الجُحْفة أو عُسفان خرج الاحوص لحاجة له فرأى كثيراً ، فرجع فأخبرهما ، فقال عمر : ابعثوا اليه ليصير الينا . فقال الاحوص : أهو يصير اليك ؟ هو والله أعظم كبرا من ذلك وأنيَه . قال : فاذاً نصير اليه . فصاروا اليه ، فوجدوه جالساً على فروة فو الله ما رفع منهم أحداً ولا أوسع لعمر بن أبى ربيعة . قال فجلسوا اليه فتحدثوا قليلا ثم أقبل على ابن أبى ربيعة فقال : ياعمر ـ وقال بعضهم ياأخا قريش ـ والله والله لقد قلتَ فأحسنت فى كثير من شعرك ، ولكنك تخطىء الطريق ، تشبب بها ثم تدعها وتشبب بنفسك ، أخبرْنى عن قولك :

قالت لِتربٍ لها تحدّثُها لتُفسِدنّ الطوافَ فى عُمَرِ
قومى تَصدّى له ليُبصِرَنا ثم اغمزيه ياأخت فى خَفَر
قالت لها غمزتُه فأبى ثم استبطَرَتْ تشتدُّ فى أثرى

أردتَ أن تنسب بها فنسبت بنفسك ، والله لو وصفت بهذا هرة أهلك ـ او قال منزلك ـ كنت قد أسأت صفتها . أهكذا يقال للمرأة ؟ إنما توصف بالخفر وأنها مطلوبة ممنَّعة ، هلا قلت كما قال هذا ـ وضرب بيده على كتف الاحوص ـ :

لقد منعتْ معروفَها أم جعفرٍ وإنى الى معروفها لفقيرُ

(*) ملخصة عن (الموشح فى مآخذ العلماء على الشعراء) للمرزبانى وهو تحت الطبع فى مطبعتنا السلفية بعناية جمعية نشر الكتب العربية (انظر الزهراء : ص ٢٧٢)

وقد أنكروا عند اعتراف زيارتي وقد وَغِرَتْ فيها عليَّ صدور
أزورُ ولولا أن أرى أم جعفرٍ بأبياتكم ما زرتُ حيثُ أزور
أزور على أن ليس ينفكُّ كلما أتيت عدوٌّ بالبَنان يُشير
وما كنت زَوَّاراً ولكن ذا الهوى إذا لم يُزَرْ لا بد أن سيزور

هكذا والله يكون الشعر وصفة النساء . فارتاح الأحوص وامتلأ سرورا وانكسر عمر . ثم أقبل على الاحوص فقال : وأنت يا أحوص أخبرني عن قولك:

فان تَصِلي أصِلْكِ وان تبيني بصُرْمكِ قبلَ وصلكِ لا أُبالي
وانى للمودَّة ذو حفاظٍ اواصلُ من يَهُشّ الى وصالي
وأقطعُ حبلَ ذى ملقٍ كذوبٍ سريعٍ فى الخُطوبِ الى انتقال

ويلك أهكذا يقول الفحول ؟ أما والله لو كنت فحلا ما قلت هذا لها ، هلا قلت كما قال هذا الاسود — وضرب بيده على جنب نُصيب — :

بزينبَ ألمِمْ قبلَ أن يرحلَ الركبُ وقل إن تمنّينا فما ملكِ القلبُ
وقل إنّ قربَ الدار يطلبه العِدى قديماً ونأى الدار يطلبه القُرب
وقل إن أنلْ بالحب منك مودَّةً فما فوق ما لاقيتُ من حبكم حُب
وقل فى تجنّيها لكَ الذنبَ إنما عتابُك مَن عاتبتَ فيما له ذنب

قال فانتفخ نصيب وانكسر الأحوص . قال ثم أقبل على نصيب فقال : ولكن أخبرني عن قولك يا ابن السوداء :

أهيمُ بدَعدٍ ما حييتُ فان أمتْ فوا حَزَني من ذا يهيم بها بعدى
ودعدٌ مَشوبُ الدَّل تولِيكَ شيمةً لشكٍّ فلا قُربى بدَعد ولا بُعدى

أيهمك من ينكحها بعدك ، الرجال أكثر مما تظن . فقال بعض القوم لبعض : انهضوا فقد استوت القرفة . فلما خرجوا من عنده قال عمر : هذا أخبث مدخول عليه فى العرب . قال المبرد : القرفة لعبة يلعب بها على خطوط فاستواؤها انقضاؤها ، وهي تسمى الطَّبْن والعامة تسميها السُّدَّر